الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني

1264-1332هـ/1848-1914م.

أ. حسني بليل*

مقدمة: إن العالم الذي خصصنا له هذه الترجمة هو الذي قالت في التنويه بشأنه مجلّة الشّهاب عند تقريظها لكتاب الجزائر للأستاذ توفيق المدنيّ: "إنّ الكتاب وُضع على الاختصار فما كنّا لنطالب مُؤلفه باستقصاء جميع الرّجال، ولكنّه سكت عن أفراد لا تكمل الصّورة التّاريخيّة إلاّ بهم، منهم العلاّمة الأستاذ عبد القادر المجاوي رحمه الله هذا الرّجل هو أبو النّهضة العلميّة بقسنطينة، وهو شيخ النّاس بجميع عمالتها، عليه تخرّج القضاة ورجالُ المحاكم والتدريس والفتوى فلا تجد واحدا من هؤلاء إلاّ وهو من تلامذته، ولو كان هذا الرّجل من أمّة عالمة لأحيت ذكراه في كلّ مُناسبة..."[1].

لقد كانَ من الشخصيات الوطنية التي ساهمت كثيرا في النهضة العلمية الجزائرية الحديثة، ولقد حاول جاهدا مستغلا ثقافته واطلاعه الواسع لإخراج الأمة من براثين الجهالة إلى نور العلم، والمحافظة على الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية ضد الممارسات التعسفية للاستعمار الفرنسي، ونظرا لاهتمام فحول علماء الجزائر بالشيخ المجاوي، فقد اخترت أن يكون موضوعي هو إبراز بعض الجوانب من سيرته الذاتية، وفقا للمحاور التالية:

المحور الأول: شخصيته: هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عيسى بن داوود بن أبي حناش بن حمليش بن علي بن محمد بن عبد الجليل المشهور بالمجاوي عالم الجزائر ومدرسها وخطيبها، وهو من البيوتات العلمية في تلمسان، فقد كان والده عبد الله بن محمد فقيه تلمسان الكبير، وقاضيها لمدّة ربع قرن من الزمن، ورائد العلماء المدرّسين في عصره، وعمه كذلك ، وجده من العلماء الأعيان بتلمسان ، وكذا سائر أصوله إلى عبد

*- أستاذ العلوم الإسلامية- ثانوية الشيخ عبد القادر الياجوري- وهران.

الجليل، ومن هذه الأسرة الكريمة حفدة المولى عبد الجليل العلامة الأجل الشريف المبجل الشيخ شعيب بن علي قاضي محروسة تلمسان كان تغمده الله برحمته الواسعة آمين.

وقال القاضي حشلاف والجامع لهذه الفروع الكريمة الطيبة المباركة هو السيد عبد الجليل بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن مسعود بن عيسى بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عبد السلام بن أيوب بن أحمد بن محمد بن مولانا إدريس باني فاس ودفينها بن مولانا إدريس دفين زرهون بن مولانا عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، ولد في تلمسان سنة 1266هـ/1848م، وبها قرأ القرآن، وأتمّ قِراءته بمدينة طنجة حيث تقلّد والدُه خطّةَ القضاءِ بها.

المحور الثاني: حياته العلمية:

شيوخه وأساتذته:

I- شيوخه في القرآن الكريم: بدأ الشيخ عبد القادر المجّاوي طلب العلم منذ صباه، شأنه شأن الصبيان المتميزين ، قرأ القرآن بتلمسان، ثم هاجر والده إلى المغرب الأقصى، وتولى التدريس في جامعة القرويين، ثم تقلّد خطة القضاء بطنجة، لّما خرج إليها من فاس سنة (1262هـ/1857م)، فأتمم قراءته بأحد كتاتيب طنجة، وهو لم يبلغ بعد سن التميز فحفظ القرآن الكريم وجوّده، ثمّ بعثه والده إلى تيطوان لمتابعة دروسه الإبتدائية والثانوية، وقد آثر والده تيطوان على طنجة نظرا للمحيط الذي اختاره وأودعه إبنه ليكون في مأمن عليه من الناحية الأخلاقية لأن محيط تيطوان، وهي قاعدة بلاد الريف يختلف عن محيط طنجة التي كانت يومئد مقر أوزاع من الناس وكان في الريف علماء صالحون يتولون التعليم الإبتدائي والثانوي في مساجدها، فأخذ مبادئ العلوم على علمائها الشيخ مفضل أفيلال العلمي، والشيخ أحمد النجار، والشيخ الطيب اليعقوبي[3].

II- شيوخه وأساتذته في العلم:

- شيخ الجماعة بفاس في وقته ، وفريد أهل زمانه وعصره ، المبرز على جميع أقرانه من أهل مصره ، العلامة المحقق ، المحدث، المشارك المدقق المسن البركة أبو العباس أحمد بن أحمد بناني المعروف أو المدعو بـ: كلا، توفي 8 جمادى الأولى عام 1306م[4].

– أبو عبد الله محمَّد الصديق بن الهاشمي العلوي: الشريف الجليل ، الماجد الأصيل ، الفقيه النوازلي ، المحدث ، الإمام ، البركة، الصالح ، قاضي مدغرة ثم فاس[5].

– محمّد قنون (كنون): خاتمة االمحققين، وحامل راية المدققين، أعجوبة أهل زمانه، وفريد عصره وأوانه، العالم العلامة، القدوة الفهامة، المشارك في كثير من الفنون، أبو عبد الله الحاج محمّد بن الحاج المدني قنون (كنون)صاحب اختصار حاشية الرهوني، والدرر المكنونة في النسب الشريفة المصونة، وغيرهما[6].

– أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن سودة المري: الفقيه العالم العلامة الأديب اللوذعي الأريب ، خطيب جامع الأندلس بفاس، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن سودة المري، كان رحمه الله ممن له الباع الكبير في علم النحو ، وإليه فيه المصير، توفي أواخر ذي القعدة عام 1299هـ[7].

– أبو محمد جعفر بن إدريس الكتّاني الحسني الفاسي الإمام الفقيه الورع الناسك، الواعظ الدال على الله بحاله ومقاله، كان ناشرا للعلم، متحريا في دينه، متقشفا في عيشه، عاكفا على نفع الخلق، عالم بالتراجم، كثير التصنيف، له الشرب المختصر، وفتاوى، وغيرهما، توفي1323هـ/1905م[8].

– أبو العباس أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج: العلامة المحقق المشارك المدقق المسن البركة الأسعد المؤرخ الضابط الأمجد، كان فقيها عالما أديبا، ذا مروءة واستبصار ومعرفة بنوادر التاريخ والأخبار، له حاشية على المكودي في شرح الألفية، وحاشية على الأزهري على الأجرومية وغيرهما، توفي في 27 من ذي الحجة سنة 1316م[9].

– الشيخ الحاج أبو العباس أحمد بن الطالب السودي المري: شهاب العلم، وقبس التحصيل والفهم، بقية السلف وزينة الخلف، شيخ الجماعة بالمغرب، بحر العلوم العقلية والنقلية الزاخر وفلكها الدائر، له عدة تآليف فقهية حديثية، ولد سنة 1241م، وتوفي سنة 1321م بفاس، توسع في ترجمته عبد الرحمن بن زيدان في مؤلفه إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس[10].

– الشيخ الحاج الصالح الشاوي.

– الشيخ مولاي أحمد العراقي الحسني الخطيب بجامع مولاي إدريس[11].

– الشيخ أبو عيسى مهدي بن الفقيه العلامة محمد بن حمدون بن الحاج: الفقيه العلامة المشارك، الحافظ الصوفي، كان رحمه الله متواضعا خاشعا، انتفع به خلق كثير، وتخرج به كثير من العلماء المدرسين، توفي سنة 1290هـ.

تلامذتـــه: تخرج عليه كثير من العلماء والقضاة والمدرسين والأئمة والأدباء، ولهذه السمة التي امتاز بها أطلق عليه شيخ الجماعة في القطر الجزائري، ومن جملة هؤلاء التلاميذ:

– حمدان بن أحمد الونيسي: هو العلامة المدرس الفقيه المحدث المصلح من علماء قسنطينة، ولد بقسنطينة سنة **1856**م، وحضر دروس الشيخ عبد القادر المجاوي، ثم ما لبث أن صار زميلا له في التدريس لأنه يقاربه سنا، عين مدرسا بالجامع الكبير بقسنطينة في يناير **1881**م، درس النحو والحساب والأدب العربي والفقه والتوحيد، وأبعد عن سلك التعليم سنة **1910**م بعد 30 سنة من العمل لأسباب غير معروفة، قد تكون من مكائد المستعمر الفرنسي؛ فهاجر حمدان الونيسي إلى الحجاز، و استقر بالمدينة المنورة، و ظل مدرسا للحديث النبوي بها إلى حين وفاته سنة **1920**م، وقد قال عنه الأستاذ أحمد لطفي السيد عند أدائه فريضة الحج سنة 1911م: ".. أما نحن فقد كنا نغشى الوقت بعد الوقت درس الأستاذ الكبير الشيخ حمدان الونيسي مدرس الحديث والبيان بالحرم النبوي الشريف". قرأ عليه العربي التبّاني تفسير الجلالين وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل. وأكثر ما حفظ ذكراه للناس هو تلميذه الإمام عبد الحميد بن باديس عليه، ومن مؤلفاته القول الحنيف في الرد على من أجاز الفتوى بالقول الضعيف[13].

2– الشّيخ محمود بن دالي المشهور بكحّول (1872م–1936م): أخذ عن الشيخ المجّاوي سماعا في مساجد قسنطينة وتخرّج عليه، درّس في سيدي مسيد– المدرسة الفرنسية الابتدائية– اشتغل محررا في جريدة المبشر بالعاصمة، ولّما أسست إدارة جونار جريدة "كوكب إفريقيا" سنة 1907م عهدت إليه بإدارة تحريرها، ثمّ أسس مع لويس بودي "التقويم الجزائري"، التي صدرت سنوات 1911–1912 و1913م، ولو استمر لكان أكبر موسوعة لأعلام الجزائر، وكانت تصدر من ميزانية الإدارة، وتحت إشرافها ثمّ تولى الشيخ بعد ذلك التدريس في المدرسة الشرعية الفرنسية بالعاصمة، وعُهد إليه بالإمامة والفتوى بالجامع الكبير في الجزائر العاصمة، وكرّمته فرنسا بوسام جوقة الشرف الفرنسي، ثمّ تولى بعد ذلك التدريس في المدرسة الثعالبية، وعُهد إليه بالإمامة

والفتوى، اغتيل في سنة 1936م، واتّهمت السّلطات الفرنسيّة الشّيخَ الطّيب العقبي بقتله واعتقلته من أجل ذلك[14].

3- مولود بن الموهوب (1866م- 1939م): هو من أكثر تلاميذ الشيخ شهرة، فهو فقيه ومفت وخطيب وشاعر وناثر، أخذ عنه في المدرسة الشرعية الفرنسية بقسنطينة، ولما تخرّج منها صار زميلا له في التدريس، وعاصر أحداثا هامة في قسنطينة، فتأثر بها منها بروز بوادر حركة الإصلاح، والنهضة الوطنية، وساهم فيها بحظ وافر، وما منظوته المسماة بمنظومة البدع، التي وضع عليها شيخه المجّاوي شرحا قيما إلاّ دليل على ذلك، وهي منظومة في محاربة البدع التي انتشرت آنذاك، بوحي من فرنسا، ثمّ عين مدرسا بالمدرسة الكتانية سنة 1895م، فمفتيا عامّا لقسنطينة سنة 1908م، وفي سنة 1926عُيّن مفتياً في مسجد باريس، ولم يغادره إلى أن قضى إلى ربه ومواهب الشيخ ابن الموهوب جعلته يتقلّد مناصب هامة وعديدة، فهو بالإضافة إلى التدريس والفتوى، كان يتولى الخطابة بالجمع الكبير، ويسهر على المساجد، وأوقافها في ولاية قسنطينة، ورئاسة الجمعية الخيرية، محاولا قدر المستطاع أنْ لا يضيع مصالح قومه وأمته ودينه، وأن لا يُغضب سلطة المحتلّ، وساهم بشكل لافت في تفعيل الحركة الأدبية بنشر المقالات في الجرائد والمجلاّت، فهو ممن أسس نادي صالح باي سنة 1907م، وشرح بعض أعمال شيخه المجاوي[15].

4- أحمد مرزوق بن سعيد الحبيباتني: هو أحد أهم أئمة وفقهاء مدينة قسنطينة في عصر النهضة الفكرية، ولد سنة 1284هـ/1867م) في منطقة بني حبيبي بولاية جيجل شرق الجزائر، حفظ القرآن في سن مبكرة على يد مشايخ منطقته، وتلقى أولى مبادئ اللغة العربية والفقه، ثم انتقل بعد ذلك إلى قسنطينة لإكمال تعليمه، فكان له ذلك، حيث تتلمذ على يد أهم فقهاء مدينة وهو الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني، استقر الشيخ احمد الحبيباتني في مدينة قسنطينة أين كان يؤم الناس ويدرس القرآن الكريم والفقه في كثير من المساجد كجامع سيدي عبد المؤمن في حي السويقة، هذا وقد حظي في زمانه بمكانة واحترام كبيرين بين سكان مدينة قسنطينة والشرق الجزائري كله، فكان يعتبر أهم ملجأ للناس يستفتونه في أمور دينهم ودنياهم، وكان على ذلك حتى وافته منيته في العاشر من شهر محرم سنة 1355هـ الموافق للفاتح أبريل سنة 1936م، كان للشيخ أحمد الحبيباتني الفضل في تكوين جيل من الفقهاء والعلماء ممن ساهموا في توجيه الأمة كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رغم أن الاستعمار الفرنسي حاول كثيرا إثارة الفتنة وتدبير

المكائد بين الشيخ وبعض أعضاء الجمعية، وبخاصة عبد الحميد بن باديس، حيث اتهم الأخير بالتخطيط لمحاولة اغتيال الشيخ الحيباتني، لكن الجميع تفطنوا وتيقنوا أن ذلك كان من كيد المستعمر للنيل من مكانة ابن باديس وعمله الإصلاحي، تخرّج عليه من المدرسة الكتانية إماما ومدرّسا وهو من صلّى على رفيقه الشيخ كحول بقسنطينة لمّا اغتيل سنة 1936م[16].

5- الشّيخ عبد الله الدراجي: الّذي كان يدرّس بجامع محمد الشريف بحيّ القصبة، فلازمه مدّة ثلاث سنوات، وأكرمه الله يومئذ بأن أخذ عنه شرح "ألفية ابن مالك" في النّحو، و"شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني"[17].

المحور الثالث: رحـــلاتـــه: بالنسبة لرحلاته خارج الوطن فلا نجد في المصادر المتاحة والمراجع المتداولة كتعريف الخلف والنهضة لدبوز، أو تاريخ الجزائر الثقافي في أجزائها كلها أو التقويم الجزائري 1911م...الخ إلا إشارات طفيفة حول رحلته التعليمية الأولى إلى طنجة وتطوان وفاس، أما في المشرق العربي أو الدول الأوربية فلا نكاد نجد أثرا مع أن بعض مؤلفاته طبعت في تونس بالمطبعة الدولية التونسية وذلك سنة 1314هـ، وفي مصر سنة 1294م، ولعلّ الإجابة عن هذا السؤال في مؤلفاته المخطوطة التي استحوذ عليها بعض الأفراد، والتي كان بإمكانها أن تنيرنا في هذا الصدد، وربّما نعثر عليها يبقى السؤال مطروحا، أما التخمين والظن والاعتقاد بدون أدلة يقينية موصلة للمطلوب فهذا مستبعد في مجال المناقب لأنها وقائع، ولابد أن يكون المستند فيها إلى وثيقة تزيل اللثام عن مخدرات الأفهام، ولو تمكنا من الإطلاع على الأرشيف الفرنسي لزال الإشكال.

أما داخل التراب الوطني فقد زار يقينا عدة أماكن وعلـــى رأســـها تلمـــسان ووهـــران ومازونة وغيرها، وكان الهدف منها استقراء أحوال البلاد، وتوثيق الصلة بينه وبين مـــشايخ هـــذه المناطق، ثم السعي الحثيث للحصول على المخطوطات النفيسة، وقد ظفر بمكتبة ثرية إما شـــراء أو إهداء ، وقد آلت بعد موته إلى نجله الفاضل الأجل العلامة المبجل الشيخ مصطفى بن عبد القـــادر المجاوي قاضي محكمة البرواقية، ثم آلت بعد وفاته إلى وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، وبعـــضها الآخر إلى أفراد.

المحور الرابع: تأثره وتأثيره: كان الشيخ متأثرا بالشيخ العلامة محمد عبده الذي كانت له زيارة للجزائر العاصمة وقسنطينة، وكان الشيخ يحمل نفس الهموم التي يحملها محمد عبده، وكانت مقالات الشيخ المجاوي في الصحف تصب في نفس المنحى.

وممن تأثروا بالشيخ نفسه تلاميذه عامة، وبالخصوص تلميذه المولود ابن الموهوب، فقد قال الأستاذ أبو القاسم سعد الله: "انتشرت دعوته التي تبناها في قسنطينة بالذات تلميذه المولود بن الموهوب ثم الشيخ عبد الحميد ابن باديس...".

المحور الخامس: مميزاته ومشاركته في المعارف: من خلال متابعتي لأعماله المطبوع منها والمخطوط، وما وسمه به من عرفوه استطعت أن أجمع جملة من المميزات كان الشيخ المجاوي يتصف بها: فهو العلامة الجليل والحبر الأصيل، الأديب المدرس الشهير، المفسر، الفقيه، الحبر الهمام، ذؤابة العلماء الأعلام، أستاذ الأساتذة ورئيس الجهابذة، حيث كان يتميّز بقدرة فائقة في مجال التّحصيل، حيث أن كلَّ كتابٍ يقرؤه لا يعيدُ قراءته، وكان يرى أن مآل الأمور تتغير إن أخذنا بالجانب الأخلاقي..، ومن كلام الشيخ المجاوي في هذا الصدد: "ما كثر الفساد في أمة إلا بعدم التربية، فإننا نرى الأولاد مهملين يتعلمون الفساد، وإننا نرى الأمم الحية إنما حصل لها الرقي بتربية أولادهم، وتعليمهم العلوم النافعة والمعرفة المفيدة..."، ومما امتاز به أيضا عن بقية مشايخ وقته أنه كان يتأجج غيظا وحنقا وعداوة للاستعمار الفرنسي الذي يحتل وطنه الجزائر ويأخذ بخناقها، وكان يوقن بأن العدو الذي قيد الجزائر للاستعمار إنما هو الجهل وضعف الأخلاق بضعف الدين، وما ساد في المجتمع الجزائري والمغربي من خرافات وعقائد باطلة تساعد الاستعمار على الإمعان في دوس كرامة البلاد وأهلها بأقدامه الوسخة ونعاله القذرة، آمن بأن الوسيلة لنهوض الجزائر والوصول إلى استقلالها إنما هي التربية والتعليم، والتربية الدينية العربية الصحيحة التي تخلق الأجيال الصالحة التي تكسر أغلال الاستعمار وتكنسه إلى البحر، والدواء الناجع الثاني هو إصلاح المجتمع والقضاء على العصبية المذهبية والجنسية التي زرعها الجهل وأنعشها الاستعمار، وكان الشيخ عبد القادر معتدا بدينه وبنفسه وبشخصيته الجزائرية الإسلامية كل الاعتداد، ترى ذلك في ملامحه وتقرؤه في أخباره وتلمسه في مؤلفاته، ومما امتاز به أيضا غيرته على الدين والعربية.

كان غيورا على الدين الإسلامي واللغة العربية، ويدافع عنهما بالحجة البالغة والبراهين المقنعة، ويرد دعوى من يجرؤ على مسهما بسوء أو يحاول أن يحوم حول حماهما بالشبهات الباطلة، ولقد كان شجاعا صريحا، قوي الحجة، حاضر البرهان، لا يهاب ولا يخاف، وكان يجادل المستشرقين المتكبرين فيخجلهم ويفحمهم، ويظهر لهم جهلهم بالإسلام والعربية، كما يبين للعامة في دروسه دسائس المبشرين وكيدهم للإسلام والمسلمين، وكان حربا على البدع والخرافات التي انتشرت في المجتمع، وألف فيها كتابا سماه "اللمع في إنكار البدع"، وهو شرح لقصيدة تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب، وكانت ولاية قسنطينة أكثر استعدادا لقبول الإصلاحات والنهضة العلمية التي كان الشيخ المجاوي يسعى إليها، وهذا هو سبب مجيئه إليها وعمره يومئذ نحو اثنين وعشرين عاما[18].

المحور السادس: نشاطه وأعماله العلمية: بدأ الشيخ المجّاوي حياته التعليمية بالتدريس في مساجد قسنطينة متطوعا منذ سنة 1870م، درّس خلالها مختلف الفنون من نحو وصرف وبلاغة وفلك وتفسير وحديث، ونتيجة لذلك طارت شهرته وملأت آفاق قسنطينة وما جاورها، وكان حلوله بهذه المدينة في هذه الفترة الحرجة من تاريخها بصفة خاصّة وتاريخ الجزائر بصفة عامّة، بمثابة نسمة الخير والبركة التي هبت من جهة الغرب عليها[19].

- في سنة 1873م عينته الحكومةُ الفرنسية مُدرِّساً في قسنطينة بـ"جامع سيدي الكتاني"

- وفي سنة1877م تمّت ترقيته، فعين أستاذا بالمدرسة الشرعية بقسنطينة المخصصة لتخريج قضاة الأحوال الشخصية والموثقين والأساتذة.

- لم ينقطع عن التدريس الحرّ في المساجد والخطابة فيها، فكأنّما خلق ليكون مدرّسا، فهو ممن كان يرى أنّ النهضة لا تكون إلاّ بالتعلّم، وأنّ الجهود الإصلاحية لا تأت من فراغ، واستمر عطاؤه العلمي فيها- تدريسا وتأليفا - إلى غاية سنة 1898م.

- في سنة 1898م نقل إلى الجزائر العاصمة؛ فانتسب إلى المدرسة العربية بشارع السفراء بباب الوادي، مدرساً لفنون العربية[20].

- رقي إلى التّدريسِ بـ"مدرسة الجزائر العُليا" أوالمدرسة الثعالبية، التي بنيت بمرسوم من الحاكم العام للجزائر شارل جونار (1902-1912م)، والتي افتتحت للتدريس سنة 1905م.

– في 1908 مُنِحَ الإمامةَ والخِطابةَ بـ"جامع سيدي رمضان" [21].

المحور السابع: إجازاته العلمية: كان التعليم العالي في جامعة القرويين، وهي يومئذ في أوج ازدهارها واشتهارها، وفيها علماء أجلة مخلصون من تلامذة الشيخ محمد المجاوي والد المترجم له، ودخل عبد القادر جامعة القرويين فوجد بغيته وبخاصة في فنون العربية التي كان يحبها، ودرس فيها التفسير والحديث ومصطلحه والفقه وأصوله، والفرائض والمنطق والحساب والفلك، والتاريخ والتصوف، والنحو والصرف والبلاغة والأدب وعلم العروض، وتخصص في هذه العلوم، وأجازه شيوخه فيها بأسانيد متصلة بالكتب المتداولة عندهم، وإسناده كإسناد الحجوي صاحب مختصر العروة الوثقى مع اختلاف في بعض المشايخ، والقادري صاحب إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية، وغيرها من الفهارس المغربية، ولولا خشية الإطالة لأوصلت جميع الكتب التي تلقاها عن شيوخه إلى مؤلفيها بسند متصل خال من كل شذوذ، أو علة قادحة تستوجب نبذه.

المحور الثامن:مؤلفاته:

– مؤلفاته المطبوعة: لم يؤلف الشيخ المجاوي على الرغم من تمكنه من علوم مختلفة إلاّ بعد أنْ مارسها تدريسا لمدة عقد كامل من الزمن، في مساجد قسنطينة تدريسا حرّا، ثمّ في مسجد الكتاني ومدرستها الشرعية لمّا عينته سلطة المحتلّ، حينما ذاع صيته وطارت شهرته في قسنطينة وما جاورها من المدن القريبة، ولاقت هذه المؤلفات قبولا واسعا ورواجا لدى طلاب العلم، وبالمقابل أحدثت زلزالا عنيفا في صفوف العدو ومن يدور في فلكه، وقد طبعت جلّ هذه المؤلفات، ولا تزال بعض نسخ مخطوطاتها محفوظةً، وسنشير إليها في الحديث عن كلّ مؤلف منها، وتنوعت مواضيعها بحسب فنون العلم التي كان يدرّسها، وبحسب ما كانت تقتضيه ظروف الجزائر العامّة في ذلك الوقت، وسنبدأ الحديث عنها بالتسلسل الزمني لتأليفها:

– إرشاد المتعلمين: هي من أوائل رسائله تأليفا، وقد قسم مباحثها إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وبين سبب تأليفها بقوله: "..ولقد ساءني ما رأيت في هذا الزمان من فتور المعلمين والمتعلمين حتى أن أهل قطرنا من إخواننا المسلمين القسنطينيين والجزائريين والوهرانيين قد تراكم عليهم الجهل... وسبب ذلك هو عدم اعتنائهم بالعلوم التي بها تهذيب أخلاقهم وإصلاح منطقهم ..."، قال عنها الأستاذ القماري: "هي رسالة كثيرة الفائدة في وقته، دعا فيها إلى الإصلاح

الاجتماعي بنقده للتقليد، كما دعا مواطنيه والمسلمين عامة إلى نبذ الركود، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة...[22].

– المرصاد في مسائل الاقتصاد: بعد الديباجة المعتادة عند الأقدمين، نوّه بموضوع الكتاب فقال ما نصه: "... فإنه لما دلت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة النبوية على أن الله خلق هذا العالم للعمارة، وهي تتوقف على تنظيمات اقتصادية وافرة، وقوانين يصار إليها في المعيشة الدنيوية، وكان هذا العلم مفرقا في بطون الكتب والدواوين السامية؛ فصعب لأجل ذلك الإطلاع على قواعده واقتطاف أزهاره وفوائده، ظهر لنا أن نجمع تلك القواعد لتكون على خير فوائد؛ فشرعنا في ذلك بعد الاستخارة وتكرر الاستشارة؛ فانشرح الصدر لذلك، وإن كنا لسنا أهلا لنسلك تلك المسالك، وجعلناه مشتملا على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، وسميناه "المرصاد في مسائل الاقتصاد"، والله المعين متوسلين إليه سبحانه بنبينا الصادق الأمين"، وقد قسم مباحث الكتاب إلى أربعة أبواب وخاتمة[23].

– شرح على المنظومة المرضية في المسائل التُجومية للإمام ابن غازي: جاء في استهلال الشرح بعد البسملة والصلاة على سيِّدنا محمد وسلَّم ما نصه: "نَحمدُ مَن زيَّن السَّماءَ الدُّنيا بالكواكب والنُّجوم، الخالق البارئ الحي القيوم، والصَّلاة والسَّلامُ على قُطب دائرة الأَنبياء والرُّسل، سيِّدنا محمَّد الذي مَن اتَّبعَ طريقَه فقَد اتَّبعَ خَيرَ السُّبل، وآله الطَّيِّبينَ البرَرة، وأَصحابه المنتَخَبين الخيرة، والتَّابعينَ وتابع التَّابعين، وجميع أمَّته المتَقين، وبعد؛ فيقولُ العبدُ الفاني عبد القادر المجاوي الحسني: إنَّه قَد ظهرَ لي أن أَشرحَ هذه المنظومة المختصَرة المحتَوية على مَعرفة دخُول المنازل والأَبراج الفَلكية، لناظمها العلَّامة ابن غازي قدِّسَ الله سرُّه قاصدًا بذلك نفعَ العباد، والله الموفِّق لما فيه الصَّلاح والسَّداد، وآخرها كان الفراغ من تَبييض هذه الرِّسالة في العاشر من شَعبان المعظَّم سنة خمس وتسعين ومائتَين بعد الألف من الهجرة النبوية[24].

– الدُّرَرُ النَّحْوِيَّةُ عَلَى المَنْظُومَةِ الشَّبْرَاوِيَّة: جاء في مقدمتها بعد البسملة والصلاة على سيِّدنا محمد وسلَّم ما نصه: "وبعد فيقول المعترف بالذنوب والمساوئ عبد القادر بن عبد الله المجاوي هذه كلمات قليلة محتوية على فوائد جليلة لمنظومة العلامة الكامل الشيخ الشبراوي صاحب الفضائل... وآخرها وكان تمام جمع هذا الشرح المفيد ليلة الجمعة التاسع عشر من صفر الخير سنة 1296...[25].

- شرح جمل الخونجي: وهو مختصر في المنطق، وكان الفراغ من تأليفه في 29 رجب سنة 1295هـ، صفحاته: 9 ورقات ضمن مجموع تحت رقم 650، بخط مغربي مقروء، وهو موجود بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث.

- كشف اللثام قي شرح شواهد ابن هشام: أوله نحمد من شهد بوجوده وقدمه افتقار الكائنات، وآخره انتهى بحمد الله وعونه الشرح المبارك الجليل أحسن الله إلى من ألفه، وأطال حياته ببلوغ أمله على يد كاتبه ومتممه من عدد خمسة وعشرين من أوراقه عبد الواحد المانح الراجي منه العفو في الدارين ابن العنتري مصطفى بن محمد الصالح في شعبان المبارك سنة 1295هـ، وهو كتاب قيم في المجال الأدبي والنحوي والبلاغي، شرح فيه كلّ الشواهد الشعرية التي تطرق لها صاحب قطر الندى وبل الصدى، وهو الإمام النحوي ابن هشام الأنصاري- رحمه الله- فشرحها الشيخ أبياتها شرحا لغويا، وإعرابا مع التطرق إلى الجانب البلاغي في الأبيات المستشهد بها، وترجم للأعلام الوارد ذكرهم في القطر، وهذا دليل على تمكنه من فن التراجم.

- نزهة الطرف فيما يتعلق بمعاني والصرف: وهو شرح لطيف مختصر على متن البناء في الصرف أوله نحمد من بيده تصريف الأفعال، وآخره وكان الفراغ من تبييض هذه العجالة ليلة الإثنين الثاني والعشرين من أول الربيعين الأبركين عام 1298هـ...[26].

- شرح منظومة الإمام المترلي في آداب المريدين: وهو شرح لمنظومة محمد المترلي التونسي القادري في التصوف، والمترلي قادري الطريقة، وشرح الشيخ يدل على تمكنه من مصطلحات القوم، ولولا ممارسته لهذا الفن لما استطاع أن يدلي بدلوه في هذا المجال، وبخاصة أن الجانب التصوفي كان مستحكما في معظم زوايا القطر الجزائري، وما ذكره شيخ المؤرخين في قطرنا من أنه ربّما كتبه من أجل أصهاره- عائلة الأمير عبد القادر- القادريِّين فيه نظر، ولعلّ أحد الباحثين في المجال التصوفي ممن تقوم همته ببحث أكاديمي يزيل الإشكال، ويدفع الإيهام، في هذا الموضوع بعينه[27].

- الدرر البهية على اللامية المجرادية: طبع بالمطبعة الحجرية مطبعة جوردان بالجزائر، توجد منها نسخة بمصلحة الثقافة والتراث بوزارة الشؤون الدينية تحت رقم 464، وجاء فيها وكان الفراغ من الشرح المبارك عشية يوم عرفة من ذي الحجة الحرام عام 1320هـ، وعدد أوراقها 63 صفحة من الحجم المتوسط، كتبت بخط مغربي يمكن قراءته، وقد ذكر الأستاذ المؤرخ أبو القاسم سعد

الله في تاريخه أنّ هذه اللامية في الجمل اهتم بها العلماء والمدرسون في قسنطينة، وألف فيها الشيخ ابن الفكون شرحاً، غير أنّه يرى بأنّ الشيخ المجّاوي خير من انبرى لها شرحا وتدريسا، لما له من فهم وخبرة في التدريس، فأفاد طلبة العلم وأثرى به المكتبة وبغيره من المؤلفات المختلفة.

– الفريدة السنية في الأعمال الجيبية: وهو كتاب موجه إلى التلاميذ، طبع على نفقة الإدارة سنة (1320هـ/1903م)، وهي رسالة في 85 صفحة، جعلها في مقدّمة وعشرين باباً وخاتمة، وتطرق فيها إلى علم الحساب والميقات وتعديله، وضمنه أراجيز ليسهل حفظه[28].

– منظومة في التوحيد: وضع تلميذه ابن الموهوب شرحا عليها، ولا يُعلم هل طبع أمْ لا ؟ وهل هي أساس كتابه: القواعد الكلامية أم لا ؟ كما أنَّ شرح تلميذه غيرمعروف[29].

– القواعد الكلامية: طبع آخر سنة 1911م بمطبعة فونتانة بالجزائر في 157صفحة، وقد قرَّظه تلميذه ابن الموهوب وهو موجّه إلى طلبة القسم العالي بالمدرسة الثعالبية، تطرَّق فيه إلى علم التوحيد بأسلوب علمي سهل ميسر، بهدف تصحيح العقيدة بالدليل، وقد جعله في مقدّمة وعشرة فصول وخاتمة[30].

– اللمع في نظم البدع: وهو شرح لمنظومة تلميذه ابن الموهوب "المنصفة في البدع"، ويقع في 198 صفحة، وقرظه تلميذه محمود كحول وأحمد بن الشيخ باش عدل بمحكمة سيدي عقبة، والكتاب امتداد لمنهجه الإصلاحي المعتمد في أول ما صدر له؛ وهو رسالته "إرشاد المتعلمين"[31].

– منظومةً في علم الفلك: هذا يدل على شدَّة اهتمامه بهذا العلم، ومنظومة تقع في 86 بيتا، استهلّها بقوله:

يقول عبد القادر المجاوي معترفا بالذنب والمساوي

ولعلّها آخر ما ألّف كما يقول الدكتور ابن قينة في كتابه "صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث[32].

* مؤلفاته المخطوطة: قد أشرنا لها عند حديثنا عن الكتب المطبوعة، وجلها قد طبعت، والفهرسة كفياة ببيان ذلك.

* مقالاته في الصحف والمجلات: ساهم المجاوي في الحركة الصحفية، حيث ساهم في الكتابة في كل من "المنتخب"، و"جريدة المغرب" 1903م، كما شارك في تحرير جريدة "كوكب إفريقيا" في الفترة ما بين (1908–1909م).

أما عن المواضيع التي عالجها في مقالاته، فهي في المجال العقائدي والعبادات، أما في الجانب الاجتماعي فحارب مختلف الأمراض الاجتماعية التي انتشرت وسط الجزائريين، كالقمار ويظهر في قوله: "فلا تجد قمارا لابسا ثوبا حسنا، فضلا عن غيره من الضَّروريات، وقرنه الله تعالى بالخمر في التحريم لشدة جرمه ولأنه من الكبائر".

* شهادات ومواقف:

– قالت مجلة الشهاب مارس 1932: "العلامة االأستاذ عبد القادر المجاوي رحمه الله، ومما قال فيه المصلح الليبي سليمات الباروني المتوفى سنة 1359هـ/1940م حينما التقاه في قسنطينة:

سيبويه العصر من هذّبه أدب العلم فأروى من وردْ

ذاك عبد القادر الطود الذي لا يقول القول إلاّ بسندْ

قال الإمام محمد البشير الإبراهيمي: "... مع علو سنه أخذه عن طبقة بعيدة الصيت في عالم الشهرة، كالشيخين عبد القادر المجّاوي وحمدان الونيسي، وغيرهما ممن الأخذ عنهم مدعاة للفخر والاستطالة وشموخ الأنف".

* الإستحقاقات والتشريفات:

– وِسامُ الإحترام (شوفالي) (1906).

– وِسامُ المعارف الذَّهبي (1898).

– وِسامُ الإفتخار التُّونسي من درجة التَّطويق (1910)".

وفاته: جاء قسنطينة زائرا فوافاه أجله فيها في ذي القعدة من عام 1337هـ الموافق لسنة 1918م، وقبره على حافة طريق الوسط الذي يتوسط المقبرة على يمين المتجه غربا وقبله على بعد أمتار يوجد قبرا الشيخين المرحومين صالح بن مهنة وعاشور الخنقي اللذين كانا متنافرين في الدنيا، وشاء الله أن يتجاورا في طريق الآخرة، هذه نبذة قصيرة عن حياة هذا العالم الجليل وجهاده البطولي وسلوكه المثالي قدمناه للقراء كنموذج لنشأة الأدب الجزائري ورجاله في عهد الحروب والثورات التي قامت على أنقاضها ثورتنا التحريرية الكبرى، وأدت إلى استقلالنا السياسي والاقتصادي الكامل وقيام نظام حياتنا الجديدة في الثقافة والتربية وشؤوننا الاجتماعية وانبعاث نهضة جديدة تبشر بمستقبل زاهر، هذا وإن ترجمة الشيخ المجاوي هي أوسع بكثير مما ذكرنا فمن أراد معرفتها كاملة فعليه بمراجعتها في كتاب "تعريف الخلف برجال السلف" للمرحوم أبي

القاسم الحفناوي الجزائري، وأوسع منه ما كتبه عنه العالم الجليل المؤرخ محمد علي دبوز أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر ففيه غنية وكفاية.

الهوامش:

1- مجلـّة الشّهاب - الجزء الثالث- ديسمبر 1930 - ص8.

2- عبد الله حشلاف- سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول الرسول- المطبعة التونسية- 1929 م- ص 53.

3- محمود كحول- التقويم الجزائري لسنة 1329- مطبعة فونطانا الأخوين وشركائهما- الجزائر- 1911- ص 105.

4- محمد بن الحسن الحجوي- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي- ط1- 1416هـ- دار الكتب العلمية- بيروت- ج2ص303/أحمد بن محمد الزكاري- الفهرسة الصغرى والكبرى - تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2003م- دار ابن حزم- بيروت- ص164.

5- أحمد بن محمد الزكاري- نفس الرجع -ص 153/محمود كحول-نفس المرجع- ص 106 وما بعدها.

6- محمد بن القاسم القادري-إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية- تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2004م- دار ابن حزم- بيروت- ص 83/محمد بن الحسن الحجوي- الفكر السامي-ج4 ص136.

7-محمد بن الحسن الحجوي-مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتفى- تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2003م- دار ابن حزم- بيروت- ص98.

8- محمد بن القاسم القادري- نفس المرجع- ص82.

9- محمد بن الحسن الحجوي- مختصر العروة الوثقى- ص60-61.

10- محمود كحول-نفس المرجع- ص 106.

11- محمد بن القاسم القادري- نفس المرجع- ص80-81.

12- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ط6- 2009م- دار البصائر- الجزائر- ج3ص130-131.

13- نفسه- ج4 ص383-385/محمود كحول- نفس المرجع-ص 105 وما بعدها.

14- أبو القاسم سعد الله- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر- ط2-1990م- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ج2 ص193-196.

15- الشيخ العربي بوعمران ومجموعة من الأساتذة- معجم مشاهير المغاربة- 1995م-جامعة الجزائر- ص473/محمود كحول-نفس المرجع- ص 105.

16- عبد القادر المجاوي- كتاب اللمع في إنكار البدع-مطبعة فونتانا- الجزائر- 1902م- ص3 وما بعدها.

17- أبو القاسم سعد الله -تاريخ الجزائر الثقافي- ج3 ص128.

18- عمار الطالبي- آثار الشيخ ابن باديس- ج1ص28.

19-محمود كحول-نفس المرجع- ص 106 وما بعدها.

20- نفسه- ص 106 وما بعدها.

21- نفسه- ص 106 وما بعدها.

22- طبعت بالمطبعة الوهبية بمصر طبعة حجرية سنة 1294هـ/1877م، وقرّظها كاتبان كبيران هما: حامد سليمان من الشام، ووهبي أفندي معلّم اللغة الفرنسية ، وأعيد طبعها سنة 2008م بدار ابن حزم- بيروت.

23- طبعت بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانا- الجزائر- 1904م.

24- طبع هذا الكتاب بمطبعة بومون-قسنطينة سنة 1879م.

25- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانة- الجزائر- سنة 1907م.

26- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانة- بالجزائر- 1907م، وتوجد نسخة مخطوطة ضمن مجموع تحت رقم 654 بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث، وعدد أوراقها 12 ورقة، وكان الفراغ من نسخها يوم 26 ربيع الثاني من سنة 1298هـ، على يد الناسخ عبد الله محمّد أمقران بقسنطينة.

27- ألفه بقسنطينة، وطبع بمطبعة الدولة التونسية سنة 1314هـ.

28- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7ص249.

29- نفسه- ج7 ص154.

30- محمود كحول-نفس المرجع- ص105/أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7ص153.

31- طبع سنة 1912م بمطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر.

32- ابن قينة- صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث- ص75.

33- محمود كحول-نفس المرجع- ص107.